



الاثنين 11 أبريل 2016 01:04 م

عزة مختار :

( وَلَا تُخَيِّبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالًا بَلْ أَرْبَاهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا دُؤِفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَقَدْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُبِينٍ ) [آل عمران: 169 - 171].

المشهد : سكون في الكون ، وهدوء بارد ، وموسيقى غير مسموعة تطرب القلب ، ورائحة عجيبة تسحر النفس ، وسحب زرقاء تسر العين ، وأجنحة بيضاء تحمل بينها جرح ما زال نازفا ، يضرج بدماء لامعة كالبرق الخاطف ، قانية كالقلب الحي ، ناطقة بلسان الصدق ، تنبض بحياة الأبد ، تضيء كالشمس ، هادئة كالقمر في ليلة اكتماله  
وصوت من سكون الكون ينساب علينا كالماء في جدول يسير في تأن بخير يطرب القلوب الحية  
يقترب الصوت ولا نملك معه إلا الصمت ، صمت الأموات حين يستمعوا للأحياء ليغبطوهم علي حياتهم ، بينما هم هنا ما زالوا في الانتظار  
بوهن وتردد

من سبقوا رحلوا بغير وداع

ونحن ما زلنا هنا ننتظر

هل نتقدم فنلحق بهم ؟

عبد الله بن رواحة وقف هنيهة

لم يستطع بهم لحاقا

ونحن ما زلنا ننتظر ، وطالت الهنيهة لتصير أزمنة وما زلنا في حالة الانتظار يكبلنا الخوف والرجاء

صمتا أحبتي واسمعوني

إخواني هل تسمعوني ؟

تنشق السماء عن الصوت ليصير أنغاما متطايرة في آذاننا ودون استئذان يملكنا ، ودون وعي نصمت :

اعذروني وقد تأخرت عليكم وقد كان بيننا عهد أن من سبق يعود ليطمئن أخاه ، ويصف له الموت ، عذرا ، فما استطعت القدوم إليكم  
وترك الحياة

لو كنت ميتا لجئتكم منذ زمن لأخبركم كيف هو الموت ، لكنني حقا لم أمت فماذا أقول ، وماذا أصف ؟

هنا كنت يوما بينكم مكبلا مثلكم ، الخوف ، الدنيا ، الأولاد ، الوظيفة ، الجوع ، السكن ، النجاح ، الرفاهية ، بكاء الأولاد وحاجاتهم ، حيرة الزوجة وضعفها ، ألم قلب الأم والأب ، كلها مكبات ، كلها سجون ، كلها وهن ، لم أدرك معني الحرية إلا مع الرصاصة الأولى ، تلك التي شقت صدري لتطهره من بقية آثام التكبير ، سقطت مع أول قطرة ، لأجد ، ويا لروعة ما وجدت .

أتذكرون حين كنا معا نتناول بعض اللقيمات ، يضع أحدها بعضها في فم أخيه إيثارا له علي نفسه ، تلك اللقيمات لم أعرف مذاقها إلا هنا ، في صحبة أحياء لنا سمعنا بهم ولم نرهم ، الآن صاروا صحبتنا ، ويسألونا عنكم ، كيف تركتموهم في الظلمات ؟ هل يستطيعون الخروج منها ؟ أم أن الدنيا ما زالت تتحكم برقابهم ؟

أتذكرون كلامي بينكم ؟ تذكرون ضحكاتي ؟ تذكرون حركتي التي لم يكن يوقفها خوف ؟ تذكرون حين كنت أصطحب ابني فتداعبوه حبا وترضية منكم لي وله ؟ تذكرون طرق أصابعي علي الباب ، ورنه هاتفي ، واسمي الذي ربما أزاله أحدكم من ذاكرة هاتفه ؟ أتذكرون حياتي ؟ أبدا والله إنها لم تكن حياة ، لم أعرف الحياة إلا هنا ، معي شهادة من الحق أنني أنا الحي لا أنتم ، فاستقيموا لتحياوا ، ارتقوا لتحياوا ، اقتربوا لتحياوا ، تخفوا من أعيانكم لتحياوا ، أتركوها لله سيعطيكم مثلها وفوقها وفوقها وفوقها ]

أتذكرون أيها الأحياء حين تعاهدنا وتبايعنا علي الموت في سبيل الله ؟ يا الله ، ما أعظمه ، وما أروع ، إنه اللذة التي لا تدانيها لذة الدنيا مجتمعة ، بضع قطرات من دمي غفرت لي كل تقصير كان ، كل ذنب نسيت ، كل لفظة لم أذكرها ، وكأنها غسلتني لأصير طيرا من أطيار الجنة ، انظروا ، ها هو مكاني في الجنة أراه ، هل تعلمون بيت من هذا الذي بجوار بيتي ؟ إنه بيت الصديق أبو بكر يقبع في ملكه الكبير الذي لا تسعه عقولنا المحدودة ، وبالقرب منا بيت عمر ، أتدرون لمن تلك الدرة المجوفة من اللؤلؤ ؟ تلك المضيئة هناك ، إنها لأمنا خديجة رضي الله عنها ، لبناتها إحداهما من ذهب والأخرى من فضة ، اصمتوا وشاهدوا فقط ، فبيت خديجة هادي ليس فيه نصب ولا

صخب ، هنا تمررون فقط في صمت وسكينة لتشهدوا عظمة تتغير في كل لحظة لعظمة أكبر منها وأروع وأكثر دهشة ، في البقعة التي هناك تلك أملاك الشهداء منا ، هنا نجاور الأنبياء ، هنا نستمع القرآن بصوت حبيبكم ، أتذكرونه ؟ حبيبكم محمد صلي الله عليه وسلم ، هو بنفسه عرفني بيته في الجنة ، اصطحبني لهنالك ، اخترت جواره كما اخترت سنته في الدنيا واقتديت بها كما كنا نتواصي ، أتذكرون تواصينا بأن محمد قدوتنا ؟ زعيمنا ؟ وجدته يعلم ، وجدت أحاديثنا عنده ، هو يؤازركم ، ويبلغكم السلام ، ويوصيكم بالثبات فأنتم علي الحق .

دخلت القبر ، عفوا ، لم يكن قبرا ، كان روضة من رياض الجنة أعدها الله بيده لمن باع لله ، رأيتمكم تكونون ، كم وددت لو أخبرتمكم بما أكرمني ربي ، كم وددت لو كففت دموعكم فانا لم أمت ، بل ملايين علي الأرض أموات بينكم ونحن وحدنا الأحياء ، ملايين تتنفس وتأكل وتتحرك وتنمو لكنها في الحقيقة ميتة ، فالموت ليس السكون ، وإنما الموت هو الغفلة لو تعلمون ، وأنا حي أرزق ، تلقتني الملائكة ، لم تسألني عن ربي ، أتعلمون لماذا لم يسألوني ؟ لأنني بعث نفسي لربي ، فليسألوه إن أرادوا ، لماذا يسألوني وأنا لم أملك نفسي ، لقد بعثها بموجب عقد معه في سورة التوبة التي حفظناها معا هنا ، في نفس تلك الحلقة ، وربما في نفس المكان ( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأُجُورَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُفْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوَارِثِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) [التوبة: 111]

أترون تلك الباقوتة الحمراء علي رأسي ؟ هذا تاج الوقار ، أندرون بكم تشتروه ؟ لا ثمن له إلا النفس ، الله اشترى منكم فهل تبيعون ؟ علمت بالصراف ، إياكم أن تحسبوا أن الصراف في الآخرة يجتازه من شاء بعمله ، الصراف يبدأ من هنا ، من لقاء لله ، من حلقة ذكر لله ، من موعد للتواصي بالحق ، من لقاء تربية في الله ، من تراب مسيرة سرتها في سبيل الله ، من حفنة غاز استنشقتها فأصابتك بالاختناق والبقاء والحرق والضيق ثم عاودت المسير لله ، الصراف يبدأ من هنا ، فإن اجتزتموه ، فأنتم عابرون هناك ، عابرون بصحبة الحبيب إلي باب بيتك في الجنة ولقد رأيته عين اليقين

تاجرت مع الله وربحت ، إياكم والتردد ، إياكم والرجوع ، إياكم والوقوع ، فأنا بحق أخوتي لكم جئتكم ، وأنتم بحق أخوتكم لبعضكم البعض لا تتركوا أحدهم للسقوط ، أنتم إخوان ، والأخ لأخيه ، إن فترت همته أخذ بيده ، وإن سقط لم يتركه للشيطان وحده ، لو تعلمون أجر مسيرة واحدة في سبيل الله ما تركتموها ، لو تعلمون أجر الثبات ما تخاذلتم ، لو تعلمون أجر أخوتكم فيه ما ترك أحدكم أخيه لحظة . في لحظة اللقاء ، حين كانت تمطر السماء موتا من فوقنا ومن تحت أرجلنا ، حين أحاط بنا الباغي من كل مكان يقتل فينا الأمل ، وجدنتني مدفوعا له ، لست أخفيكم أن قلبي كان وجلا ، ولست أخفيكم أن قدمي كانت تنقل في بعض خطواتي ، أعترف أنني كنت أسيرا لبعض الخوف ، لكنه لم يكبلني ، استطعت أن أتجاوزه حين رأيت الخوف في عين قاتلي رعبا ، وجدته مرتعبا مني وأنا الأعزل وهو المدجج بالسلاح ، وجدنتني الأقوى بالله وهو العبد المكبل لسيدته بالدرهم والدينار والخوف ، وجدنتني أنا سيده وهو الذليل ، اقتحمت عليه ذاته الضعيفة الهينة لأخبره أنني شهيد حي ، أن ميتغاي الجنة لا غيرها ، وأن عرسي اليوم علي الحور العين وهن في انتظاري ، وأن ديني أعلي من ملك سيده ، وأن حرية روعي لا يملكها إلا من بعث له نفسي ، لم يملك إلا أن يضغط علي زناد الكراهية ليحررني ، كتب علي نفسه اللعنة بدمي ، وكتب لي ربي الجنة بنفس الدماء ، لم أشعر إلا بتحرير ذاتي ، لا ألم ، لا خوف ، لا موت ، لا حساب ، لا عذاب ، لا اختناق ، لا حشرجة ، لا غسل وقد اغتسلت بدمي ، لا تعرية وقد دفنت في ملابسني ، لا جثة وأنا حي ، أنا الحي بينكم فاسمعوني أنا بعث الله فربحت البيع وأي ربح ، فهل أنتم لله بائعون ؟ هل أنتم بائعون ؟

المقالات المنشورة تعبر عن رأي كاتبها فقط ولا تعبر بالضرورة عن رأي الموقع